سورية ولبنان

الرسالة السابعة

الجامع الاموي

لم أكد ابدي رغبتي في زيارة دمشق مع عائلتي حتى تكرّم الصديق الفاضل سعادتلو سليم بك ثابت بمرافقتنا اليها ورافقنا ايضاً حضرة ابن عمه الخواجه الياس ثابت والسيدة قرينة اخيه الخواجه قسطنطين ثابت . اصدقاء اصفياء جمعوا بين الذكاء الشرقي والتهذيب الغربي وفاقوا بحسن المحاضرة ولطف المسامرة

قمنا من صوفر في يوم من الشهر عقدت سحبهُ وانهمرت مزنهُ حتى تجلنا الصيف شتاء وكُفينا مؤونة العشير والمخ الهجير فوصلنا محطة المريجات قبل الظهر ووجدنا المركبات في انتظارنا بعث بها الينا سليم بك ثابت لتزور قصرهُ البديع في سفح لبنان وحدود البقاع ونشاهد ما حواهُ من نفائس التحف وآثار زوارهِ من الامراء والعظماء وما يحيط بهِ من الجنان والبساتين كما سيجيء في الكلام على حفلات الانس والصفاء

والمشاهد من صوفر الى دمشق في لبنان الغربي ولبنان الشرقي والسهل بينهما من جبال ووهاد ومروج وغياض وادواح لعب النسيم باغانها وجداول تغنّي ماؤها في تصبيبه كانها انقيان تعزف بالحانها مما لا يتصورهُ ساكن قطر كلهُ سهول مبسوطة على وتيرة واحدة ولو ابتت العسجد وتسربلت بالزبرجد

كانت العين ترى ابدع المناظر والاذن تسمع انكه الاحاديث ولكن العقل عقلان عقل يعي ما امامهُ وعقل يخترق حجب الغيب ويفكر في ما يتوقع ان يراهُ ويسمعهُ . ومن يقصد دمشق وقد قرأ عنها المجلدات وسمع عن مكارم اهلها ما تغنى بهِ الشعراء ولا يشغل ذهنهُ بما يتوقع ان يراهُ ويسمعهُ

ولقد كان غرضي الاول من زيارة مدن سورية ولبنان ان ارى درجة ارتقاء السكان في صناعتهم وتجارتهم وسائر احوالهم المعاشية واهتمام حكامهم بامورهم العمومية والخصوصية اما دمشق فقصدتها لغرض آخر مع هذه الاغراض وهو رؤية المقام الذي كان مظهراً لطبيعة الانسان الدينية منذ اكثر من ثلاثين قرناً ولا يزال من اكبر المعابد على وجه البسيطة . وقف فيهِ الاراميون سكان سورية الاصليون واسترضوا القوة التي اعتقدوا انها متسلطة على شؤون

الناس وشكروها على ما في غوطة دمشق من الخير والمبر وطلبوا منها ان تردأ عنهم شر الغزاة من عرب البادية ومستوطني الجبال . واقتفاهم الروم فشادوا هناك بناء كبيراً لمعبوداتهم وجعلوه من اتم الهياكل واجملها . ولما انتشرت الديانة المسيحية وتنصّر الجانب الاكبر من الدماشقة جعلوا هذا الهيكل كنيسة لعبادة الخالق واقامة شعائر الدين وجاء العرب بعدهم فجعلوا الكنيسة جامعاً وكرّت العصور على هذا الجامع وهو اكبر جوامع الاسلام واجملها

كانت اقامتنا في دمشق قليلة فلم يتيسر لنا ان نقضي في مشاهدة الجامع الاموي الاّ ساعات قليلة وقد رافقنا اليهِ جماعة من خلّص الاصدقاء مثل الوجيه الخواجا عبدو وكيل ونجيب افندي مرشاق وصموئيل افندي عطيه وهو من رفاقنا في السفر

دخلنا من باب البريد وجلنا في صحن الجامع وامعنا النظر في ما لم تصل النار اليهِ وفي ما جُدّد منهُ حتى عاد الى اصلهِ . وفي محاربهِ التي يقف عندها الطرف حائراً والعقل مبهوتاً وما فيها من البلاط المخرّم والنقش البالغ حد الاعجاز وصعدنا الى مأذنة عيسى احدى مآذنهِ الثلاث وشاهدنا منها قبتهُ وسقوفهُ والمدينة والغوطة وما يحيط بها من السهول والجبال . ووددت لو اتيح لي ان اقيم شهراً في ذلك المسجد العظيم اقيس واقابل وابحث وانقب . ولو فعلت ما وفيت الموضوع حقهُ كما وفاهُ غيري من الكتّاب الاوربيين لاسيما وان فيهم المهندس والمؤرخ ومن قضى العمر في البحث والتنقيب . فاعتمدت على ما كتبوهُ ولاسيما على مقالة للمستر فنه سبيرس ومقالة للمهندس ارتشبلد كيل وكلاهما منشورتان في اعمال جمعية التنقيب في فلسطين

دمشق اقدم مدينة في بلاد الشام ان لم تكن اقدم مدينة في الدنيا جاء ذكرها في التوراة في زمن ابرهيم الخليل قبل المسيح بنحو ١٩٠٠ سنة وكان لها ولموكها شأن كبير في تاريخ اليهود . استولى عليها الاسكندر المكدوني سنة ٣٣٣ قبل المسيح وتعاقب عليها السلوقيون والبطالسة من خلفائهِ . وسنة ١١٤ قبل المسيح استولى انطيوخس كيزيوس على نصف مملكة السلوقيين وجعل دمشق عاصمتهُ وسنة ٨٤ قبل المسيح استولى عليها الحارث بن زبال ملك البتراء بدعوة من اهلها ولقبوهُ فيلهلين اي محب اليونان ثم استولى عليها الرومان سنة ٦٤ واستردها الحارث الرابع حموهيرودس ملك اليهود سنة ٣٧ للميلاد وكان قد جاء محارباً هيرودس لانهُ لم يحسن معاملة ابنتهِ . وفي عهدهِ فرّ بولس الرسول من دمشق على ما جاء في اعمال الرسل

وصارت دمشق مدينة رومانية في عهد الامبراطور طرايانس الذي كان بين سنة ٩٨ و ١١٨ للميلاد والمظنون ان بولودورس الدمشقي الذي كان اشهر مهندسي عصرهِ في فن البناء بنى بعض المباني الكبيرة فيها ولكن المرجح ان اكثر مباني سورية العظيمة بنيت في عهد

الامبراطور انطونيوس بيوس وهو الذي بنى الواجهتين البديعتين في الجهة الشرقية والجهة الغربية من الجامع الاموي كما سيجيء فان اعظم هياكل بعلبك وجرش وتدمر وغيرها من المدن السورية الكبيرة بنيت في عهده وعهد خلفه مرقس اورليوس انطونيوس الذي كان بين سنة ١٦١ و ١٨٠ للميلاد . وبقيت دمشق في حوزة الرومانيين الى ان استولى عليها سابور ملك الفرس سنة ٢٦٠

ولما انتشرت الديانة المسيحية في الامبراطورية الرومانية وصارت ديانة المملكة في عهد قسطنطين الكبير سنة ٣٢٣ للميلاد جُعلت دمشق اسقفية واضيفت اليها ١٥ ابرشية ويقال ان هيكلها جعل كنيسة بامر الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٧٩ وقد وجد حجر قرب باب جيرون عليه كتابة يونانية يقال فيها هذه كنيسة الطوباوي يوحنا المعمدان جدّدها اركاديوس ابن ثيودوسيوس

ولما فتح العرب دمشق سنة ٦٣٤ قسمت هذه الكنيسة قسمين في ما قيل فاخذ المسلمون نصفها الشرقي وبقي للمسيحيين نصفها الغربي وكان الفريقان يدخلان من باب واحد وبقي الامر كذلك الى زمن الوليد بن عبد الملك . قال ابن الاثير ان الوليد بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الاقصى . وفصّل كيفية بنائه لمسجد المدينة قال انهُ كتب الى عمر بن عبد العزيز ليهدم مسجد النبي ويخبر ازواجه ويشتري ما في نواحيه حتى يكون مثني ذراع في مثني ذراع ويبعث الى ملك الروم بعلة انهُ هدم المسجد ليعمره فبعث اليه ملك الروم مائة الف مثقال ذهب ومئة عامل وبعث اليه من الفسيفساء باربعين حملاً فبعث الوليد بذلك الى عمر ابن عبد العزيز وحضر عمر ومعهُ الناس فوضعوا اساسهُ وابتدأوا بعمارته وكان الوليد قد بعث اليه بالفعلة من الشام

فلمّ اخبر الوليد ملك الروم انهُ هدم مسجد النبي وعزم ان يبنيهُ ثانية ولماذا بعث اليه ملك الروم بالفدايا والعمال وكيف دخل العمال المدينة وعملوا فيها وهم نصارى . هذه مسائل يصعب حلها والتاريخ كما نراهُ

اما عن جامع دمشق فنقول في الكلام على الوليد بعد وفاته كان الوليد عند اهل الشام من افضل خلفائهم بنى المساجد مسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الاقصى ووضع المنابر ولما اراد ان يبني مسجد دمشق كان فيه كنيسة فهدمها وبناها مسجداً فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا اليه ذلك فقال لهم عمر ان ما كان خارج المدينة فتح عنوة ونحن نرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما فانها فتحت عنوةً ونبنيها مسجداً فقالوا بل ندع لكم هذا ودعوا كنيسة توما

وما ذكرهُ ابن الاثير هنا لا يؤيد ما قيل قبلاً من ان الكنيسة قسمت قسمين وقت الفتح. واقدم من ذكر فتح الشام من مؤرخي العرب الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة لكن كتابهُ المشهور فتوح الشام رواية مبنية على تاريخهِ وروايتهُ مشهورة وفيها الغث والسمين والمأثور والموضوع. ثم ذكرهُ اليعقوبي سنة ٢٧٨ للهجرة وروايتهُ مختصرة جدًّا قال فيها « افتتح مدينة دمشق في خلافة عمر بن الخطاب سنة اربع عشرة افتتحها ابو عبيدة بن الجرَّاح من باب لها يقال لهُ باب الجابية صلحًا بعد حصار سنة ودخل خالد بن الوليد من باب لها يقال لهُ باب الشرقي بغير صلح فاجاز ابو عبيدة الصلح في جميعها وكتبوا الى عمر بن الخطاب فاجاز ما عمل بهِ ابو عبيدة . وكانت دمشق منازل ملوك غسان وبها آثار لآل جفنة والاغلب على مدينة دمشق اهل اليمن وبها قوم من قيس ومنازل بني امية وقصورهم اكثر منازلها وبها خضراء معاوية وهي دار الامارة ومسجدها الذي ليس في الاسلام احسن منهُ بالرخام والذهب بناهُ الوليد بن عبد الملك بن مروان في خلافتهِ » انتهى من كتاب البلدان . وزاد على ذلك في تاريخهِ ان الوليد ابتدأ ببنائهِ سنة ٨٨ وانفق عليهِ اموالاً عظامًا

وزار الشيخ شمس الدين المقدسي هذا الجامع سنة ٣٧٥ للهجرة (٩٨٥ للميلاد) وكتب عنهُ في كتابهِ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ما نصهُ

والجامع احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال بمجمع اكثر منهُ قد رفعت قواعدهُ بالحجارة الموجهة كبارًا مؤلفة وجعل عليها شرف بهية وجعلت اساطينها اعمدة سودًا ساسًا على ثلاثة صفوف واسعة جدًّا وفي الوسط آزاه المحراب قبة كبيرة وادير على الصحن اروقة متعالية بفراخ فوقها ثم بُلط جميعهُ بالرخام الابيض وحيطانهُ الى قامتين بالرخام المجزَّع ثم الى السقف بالفسيفساء الملوَّنة المذهبة فيها صور اشجار وامصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة وقلَّ شجرة او بلد مذكور الاَّ وقد مثَّل على تلك الحيطان . وطليت رؤوس الاعمدة بالذهب وقناطر الاروقة كلها مرصَّعة بالفسيفساء واعمدة الصحن كلها رخام ابيض وحيطانهُ بما يدور والقناطر وفراخها بالفسيفساء نقوش وطروح والسطوح كلها ملبسة بشقاق الرصاص والشرافيَّات من الوجهين بالفسيفساء وعلى اليمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد مرصَّع حيطانهُ بالفسيفساء وفي المحراب وحولهُ فصوص عقيقية وفيروزجية كاكبر ما يكون من الفصوص وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا للسلطان وقد كان تشعَّث وسطهُ فسمعت انهُ انفق عليهِ خمسمائة دينار حتى عاد الى ما كان . وعلى رأس القبَّة زنجفة فوقها رمَّانة كلاهما ذهب

ومن اعجب شيء فيهِ تأليف الرخام المجزَّع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل

الحكمة اختلف اليه سنةً لاستفاد منه كل يوم صنعة ويقال ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم وانفق عليه خراج الشام سبع سنين مع ثمانية عشر صفيحة ذهب وفضة اقتلعت من قبرص سوى ما اهدى اليه ملك الروم من الآلات والفسيفساء

ويدخل اليه العامة من اربعة ابواب باب البريد عن اليمين كبير له فرخان عن يمينه وشماله على كل واحد والفرخين مصراعان مصفحة بالصفر المذهب وعلى الباب والفرخين ثلاثة اروقة كل باب منهما يفتح الى رواق طويل قد عقدت قناطره على اعمدة رخام ولبست حيطانه بما ذكرنا وجميع السقوف مزوقة احسن تزويق وفي هذه الاروقة موضع الورالين ومجلس خليفة القاضي وهذا الباب بين المقطى والصحن يقابله عن اليسار باب جيرون على ما ذكرنا غير ان الاروقة معقودة بالعرض يصعد اليه في درج يجلس فيه المجمون واصرابهم وباب الساعات في زاوية المقطى الشرقية مصراعان مواذج عليه اروقة يجلس فيه الشرطيون واشباههم والباب الرابع باب الفراديس مصراعان قبال المحراب في اروقة بين زيادتين عن يمين وشمال عليه منارة محدثة مرصعة على ما ذكرنا وعلى كل من هذه الابواب ميضأة مرخمة بيوت ينبع فيها الماء وفوارات خارجة في قصاع عظيمة من رخام ومن الخضراء وهي دار السلطان ابواب الى المقصورة مصفحة مطلية وقلت يوماً لعمي يا عم لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان اصوب وافضل قال لا تعجل يابني ان الوليد وفق وكشف له عن امر جليل وذلك انه رأى الشام بلد النصارى ورأى لم فيها بيعاً حسنة قد اتقن زخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة وبيعة لد وازرعا فاتخذ للمسلمين مسجداً اشغلهم به عنهن وجعله احد عجائب الدنيا الا ترى ان عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى . انتهى ما ذكره المقدسي

وقال ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة انه كان الابتداء بعمارة الجامع الاموي سنة ٨٧ وقيل سنة ٨٨ للهجرة وان الوليد انفق على عمارته في ما قيل خراج المملكة سبع سنين وحملت اليه الجبايات بما انفق عليه على ثمانية عشر بعيراً فاعرض باحرافها ولم ينظر فيها وقال هو في لا اخرجناه لله لم نسعه . . . وله ثلاث مآذن احداها وهي الكبرى كانت ويدبانا للروم فاقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . ويقال في الاخبار ان عيسى عليه السلام سينزل عليها . والمنارة الغربية هي التي تعبد فيها ابو حامد الغزالي وابن تدمرت ملك الغرب قيل انها كانت هيكل النار وان ذوابة النار تطلع منها ويجد لها اهل حوران . ولم يزل جامع

دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنيق الى ان وقع فيهِ حريق في سنة ٤٦١ فاذهب بعض بهجتهِ . انتهى

وقد زار هذا الجامع الرحالة بن جبير سنة ٥٨٠ للهجرة ووصف الجامع الاموي وصفاً مسهباً فنوردهُ هنا ثم نفصل اشكالهُ ورسومهُ وما كشف من آثارهِ القديمة . قال ابن جبير

هو من اشهر جوامع الاسلام حسناً واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنيق وتزيين وشهرتهُ المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيهِ . ومن عجيب شأنهِ انهُ لا تنسج بهِ العنكبوت ولا تدخلهُ ولا تلم بهِ الطير المعروفة بالخطاف . انتدب لبنائهِ الوليد بن عبد الملك رحمهُ الله ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمرهُ باشخاص اثني عشر الفاً من الصناع من بلادهِ ونقدم اليهِ بالوعيد في ذلك ان توقف عنهُ فامتثل امرهُ مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك على ما هو مذكور في كتب التواريخ فشرع في بنائهِ وبلغت الغاية في التأنق فيهِ وانزلت جدرهُ كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفسا وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت اشجاراً وفرعت اغصاناً منظومة بالفصوص بدائع من الصنعة الانيقة العجيزة وصف كل واصف فجاء يمشي العيون وميضاً وبصيصاً وكان مبلغ النفقة فيهِ حسبما ذكرهُ ابن المجلي الاسدي في جزء وصفهُ في ذكر بنائهِ مائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار ومائتا الف دينار فكان مبلغ الجميع احدى عشر الف الف دينار ومئتا الف دينار . والوليد هذا هو الذي اخذ نصف الكنيسة الباقية منهُ في ايدي النصارى وادخلها فيهِ لانهُ كان قسمين قسماً للمسلمين وهو الشرقي وقسماً للنصارى وهو الغربي لان ابا عبيدة بن الجراح رضي الله عنهُ دخل البلد من الجهة الغربية فانتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينهُ وبين النصارى ودخل خالد بن الوليد رضي الله عنهُ عنوةً من الجانب الشرقي وانتهى الى النصف الثاني وهو الشرقي فاحتازهُ المسلمون وصيروهُ مسجداً وبقي النصف المصارع عليهِ وهو الغربي كنيسة بايدي النصارى الى ان عرضهم منهُ الوليد فابوا ذلك فاثترعهُ منهم قهراً وطلع لهدمهِ بنفسهِ وكانوا يزعمون ان الذي يهدم كنيستهم يجن فبادر الوليد وقال انا اول من يجن في الله وبدأ الهدم بيدهِ فبادر المسلمون واكملوا هدمهُ

ذرعهُ في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهما ثلاثمائة ذراع وذرعهُ في العمق من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع فيكون تكسيرهُ من المراجع الغربية اربعة وعشرين مرجحاً وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم غير ان الطول في مسجد رسول الله صلى الله عليهِ من القبلة الى الشمال . وبلاطاتهُ المتصلة بالقبلة

ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منها اربع وخمسون سارية وثماني ارجل جصية تخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن واربع ارجل مرخمة ابدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم وصورت محاريب واشكالاً غريبة قائمة في البلاط الاوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً وطولها عشرون شبراً وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً . ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته الشرقية والغربية والشمالية سعتهُ عشر خطىً وعدد قوائمهِ سبع واربعون منها اربع عشرة رجلاً من الجص وسائرها سوار فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع . وسقف الجامع كلهُ من خارج الواح رصاص

واعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطهُ سامية في الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لما يتصل من المحراب الى الصحن وتحتهُ ثلاث قباب قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما . والقبة الرصاصية قد اغصت الهواء وسطهُ فاذا استقبلتها ابصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلاً يشبههُ الناس بنسر طائر كأن القبة رأسهُ والغارب جؤجؤهُ ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف الثاني عن شمال جناحاهُ وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليهِ . ومن اي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل ملوكأنها معلقة من الجو والجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر وفي القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار اربع عشرة شمسية وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره اربع واربعون وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع واربعون شمسية

وفي الجامع ثلاث مقصورات مقصورة الصحابة رضي الله عنهم وهي اول مقصورة وضعت في الاسلام وضعها معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما وبازاء محرابها عن يمين مستقبل القبة باب حديد كان يدخل معاوية رضي الله عنهُ الى المقصورة منهُ الى المحراب وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلّى ابي الدرداء رضي الله عنهُ وخلفها كانت دار معاوية رضي الله عنهُ وهي اليوم سماط عظيم للعطارين يتصل بطول جدار الجامع القبلي ولا سماط احسن منظراً

منهُ ولا أكبر طولاً وعرضاً . وخلف هذا الصحاط على مقربة منهُ دار الخيل برسمهِ وهي اليوم مسكونة وفيها مواضع للكاتبين . وطول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة واربعون شبراً وعرضها نصف الطول ويليها لجهة الغرب في وسط الجامع المقصورة التي احدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكرهُ وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة وكانت مقصورة الصحابة اولاً في نصف الخط الاصلاي من الكنيسة وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً صارت مقصورة الصحابة طرفاً في الجانب الشرقي واحدثت المقصورة الاخرى وسطاً حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال وهذه المقصورة المحدثة اكبر من الصحابية . وبالجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة اخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون وبازائها زاوية محدقة بالاعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة وبالجانب الشرقي في زاوية اخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها احد امراء الدولة التركية وهي لاصقة بالجدار الشرقي . وبالجامع عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة

وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون باباً متصلة بطول الجدار قد علتها قبي جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتبصر العين من اتصالها اجمل منظر واحسنهُ

والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على اعمدة وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوسة تقابلها اعمدة صغار تطيف بالصحن كلهِ . ومنظر هذا الصحن من اجمل المناظر واحسنها وفيهِ مجتمع اهل البلد وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية تراهم فيهِ ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبهِ ومنهم من يقرأ لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون . ولبعضهم بالغداة مثل ذلك واكثر الاحتفال انما هو بالعشي فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم لا يزالون على ذلك كل يوم واهل البطالة من الناس يسمونهم الحراثين

وللجامع ثلاث صوامع واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الى اغلاق يسكنها اقوام من الغرباء اهل الخير . والبيت الاعلى منها كان معتكف ابي حامد الغزالي رحمهُ الله ويسكنهُ اليوم الفقيه الزاهد ابو عبد الله ابن

سعيد من اهل قلعة يحصب المنسوبة لهم وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها . وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين

وفي الصحن ثلاث قباب احداها في الجانب الغربي منهُ وهي اكبرها وهي قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة كانها الروضة حسناً وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة يقال انها كانت مخزناً لمال الجامع ولهُ مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة وهي خمسة عشر الف درهم مؤمنية او نحوها . وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن محمولة مثمنة من رخام قد البسق ابدع الصاق قائمة على اربعة اعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطهِ انبوب من الصفر يجيء الماء الى علو فيرتفع ويرتفي كأنهُ قضيب لجين يشره الناس لوضع افواههم فيهِ للشرب استظرافاً واستحساناً ويسمونهُ قفص الماء . والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية اعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن اصغر منها

وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يفضي الى مسجد كبير في وسطهِ صحن قد امتدار فيهِ صهريج من الرخام كبير يجري الماء فيهِ دائماً من صفحة رخام ابيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منهُ اليها ويعرف هذا الموضع بالكلاسة ويصلي فيهِ اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث ابو جعفر الفكي الترطبي و يتزاحم الناس على الصلاة فيهِ خلفهُ التماساً لبركتهِ واستماعاً لحسن صوتهِ

وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد من احسن المساجد وابدعها وضعاً واجملها بناء يذكر الشيعة انهُ مشهد لعلي بن ابي طالب رضي الله عنهُ وهذا من اغرب مختلقاتهم . ومن العجيب انهُ يقابلهُ في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع اول البلاط الغربي مجلل بستر في اعلاهُ وامامهُ ستر ايضاً مسدل يزعم اكثر الناس انهُ موضع لعائشة رضي الله عنها وانها كانت تسمع الحديث فيهِ وعائشة رضي الله عنها في دخول دمشق كعلي رضي الله عنهُ لكن لم في علي رضي الله عنهُ مندوحة من القول وذلك انهم يزعمون انهُ رئي في المنام مصلياً في ذلك الموضع فبنت الشيعة فيهِ مسجداً واما الموضع المنسوب لعائشة رضي الله عنها فلا مندوحة فيهِ وانما ذكرناهُ لشهرتهِ في الجامع

وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً و باطناً متزلاً كلهُ بالفصوص المذهبة مزخرفاً بأبدع زخارف البناء المعجز الصنعة فادركهُ الحريق مرتين فتهدم وجدد وذهب اكثر رخامهِ

فاستحال رونقه فاسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من اعجب المحاريب الاسلامية حسنًا وغرابة صنعة يتقد ذهبًا كله وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سوريات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة لم يرَ شيء اجمل منها وبعضها حمر كأنها مرجان . فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها حتى ترتقي الى الابصار منه اشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه والله يعمره بمنه

وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه وهو المصحف الذي وجه به الى الشام . وتفتح الخزانة كل يوم اثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه

وله اربعة أبواب (باب) قبلي ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع له اعمدة عظام وفيه حوانيت للخرز بين وسوام وله مرأى رابع ومنه يفضي الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه وتعرف بالخضراء . (وباب) شرقي وهو اعظم الابواب ويعرف بباب جيرون (وباب) غربي ويعرف بباب البريد (وباب) شمالي ويعرف بباب الناطفيين والشرقي والغربي والشمالي ايضًا من هذه الابواب دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها واعظمها منظرًا الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب الى بلاط طويل عريض قد قامت امامه خمسة ابواب مقسومة لها ستة اعمدة طوال وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبازائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبذلك المشهد ماء جار . وقد انتظمت امام البلاط ادراج يخدر عليها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع يحسر الطرف دونه سموًا قد حفته اعمدة كالبروج طولاً وكالاطواد ضخامة ويحاذي هذا الدهليز اعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسوام وعليها شوارع أخر مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز وفوقها سطح بيت به مكان الحجر والبيوت

وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها اعمدة من الرخام ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف عليها تعنيب وفي وسط

الحوض الرخامي انبوب صغير يزعج الماء بقوة فيرتفع الى الهواء ازيد من القامة . . . . . وحولهُ انابيب صغار ترمي الماء الى نحو فيخرج عنها كقضبان الفضة فكانها اغصان تلك الدوحة المائية ومنظرها اعجب وابدع من ان يلحقهُ الوصف

وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي امامهُ غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيهِ طيقان صغر قد فتحت ابواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاسين من صفر تحت كل واحد منهما . احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها والطاسان منقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان عنقيهما بالبندقتين الى الطاسين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تخيلهُ الاوهام سحراً وعند وقوع البندقتين في الطاسين يسمع لها دوي ويغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين يلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثني عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار مدبر ذلك كلهُ منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور بهِ الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت ثم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها . وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها بعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجانه

ودهليز الباب الغربي فيهِ حوانيت البقالين والعطارين وفيهِ بساط لبيع الفواكه وفي اعلاه باب عظيم يصعد اليهِ على ادراج ولهُ اعمدة سامية في الهواء وتحت الادراج سقايتان مستديرتان سقاية يميناً وسقاية يساراً لكل سقاية خمسة انابيب ترمي الماء الى حوض رخام مستطيل . ودهليز الباب الشمالي فيهِ زوايا على مصاطب محدقة بالاعواد المشرجية هي محاضر لمعلمي الصبيان . وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية في وسطها صهريج ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهُ والصهريج الذي في وسطها يجري الماء فيهِ ولها مطاهر يجري الماء في بيوتها

وعن يمين الخارج ايضاً من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيهِ ولها مطاهر على الصفة المذكورة وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيراً

لما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجان قد خرما أحسن تخريم يسرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان . واحتفال اهل هذه البلدة لهذه الليلة أكثر من احتفالهم بليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم . انتهى

هذه خلاصة ما ذكره الشهر كتّاب العرب في وصف هذا الجامع وتاريخ عمارته فلنأت الآن الى ما وجده الباحثون الاوربيون بحثهم ولاسيما بعد ان احترق اخيراً سنة ١٨٩٣ وظهر بعض ما لم يكن ظاهراً منهُ . ويفهم ذلك من النظر الى الشكل الاول المقابل فعلى كل جهة من جهاتهِ الاربع خطّان متقطعان يدلاّن على سور الحرم الاصلي الذي كان يحيط بالهيكل وهو الآن داخل في مباني دمشق ولم يكشف منهُ الاّ قوائم بابهِ الشرقي عند الرقم ١٤ وجانب صغير من الجدار الشرقي وجانب من الجدار الشمالي حيث كان الباب الشمالي عند الرقم ١٨ وجانب من الجدار الغربي والجدار الجنوبي حيث كان الباب الجنوبي عند الرقم ١٩ . وذلك كلهُ مطبوع اسود في الرسم ليمتاز عن غيرهِ . وطول هذا الحرم من الشرق الى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضهُ من الشمال الى الجنوب ١٠٠٠ قدم فهو ربع مساحة دمشق كلها وكان امام جدرانهِ الاربعة من الداخل صف من الاعمدة على دائرهِ كشف المستر وكي بعضها وهو المرسوم اسود في هذا الشكل فيتكون منها ومن الجدار رواق يحيط بساحة الحرم عرضهُ خمسون قدماً والظاهر انهُ كان مسقوفاً ولم يزل الباب الشرقي منهُ حيث الرقم ١٤ قائماً كما سيجيء . وكان بين هذا الباب وبين اعمدة الرواق ايوان فيهِ ٢٤ عموداً لم يبقَ الاّ واحد منها واعمدة الرواق هناك كبيرة كالاعمدة التي داخل الباب الغربي حيث الرقم ١٣ . ويوصل منها الى باب جيرون حيث الرقم ٢ بسرداب طويل قائم على اعمدة مثل السرداب الذي امام باب البريد حيث الرقم ١ ولم يبقَ شيء قائماً من اعمدة السردابين ولكن ابن جبير ذكرها كأنها كانت لا تزال قائمة في زمانهِ . وفي رواق هذا الحرم عند الرقم ١٣ واجهة على ستة اعمدة مثل الشكل الخامس التالي ويظهر انهُ كان هناك ايوان آخر عند الرقم ٣ . والى الغرب منهُ باب كبير مثل الباب الشرقي الذي عند الرقم ١٤

والجامع في وسط هذا الحرم قائم على اسس الكنيسة التي كانت قبلهُ وهي قائمة على اسس الهيكل الذي كان قبلها او على بعضها . والجامع قسمان قسم مسقوف وهو المسمّى في كتب العرب بالهيكل الاوسط والبلاطات او الاروقة الثلاثة الشرقية والبلاطات الثلاثة الغربية وطولهُ من الشرق الى الغرب ٤٤٦ قدماً اي من الرقم ١٥ الى الرقم ١٦ وعرضهُ من

الشمال الى الجنوب ٢٣٠ قدماً اي من الرقم ٢ الى الرقم ٢ . واما صحن مكشوف ما عدا اروقته طوله ٤٤٦ قدماً وعرضه ١٦٠ قدماً وله اروقة على جهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية . والجدار الشمالي وروافقه لبسا مواز بين الجامع بل الجهة الشرقية اعرض من الغربية ١٠ اقدام . ولهذا الصحن مدخلان كبيران من الشرق والغرب حيث الرقم ١ بالرقم ٢ وهما باب جيرون وباب البريد وكل منهما ثلاثة ابواب . وله باب ثالث في الجدار الشمالي حيث الرقم ٣ . وفي الجامع باب رابع عند الرقم ٤ وهو باب الزيادة . وله ثلاث مآذن او منابر المأذنة الغربية عند الرقم ٥ ومأذنة عيسى عند الرقم ٦ وكانا برجين للديدبان في زمن الرومان فبنيت فوقهما مأذنتان . ومأذنة العروس عند الرقم ٧ وهي من عهد الوليد على ما يظهر او من بعده . وكل ما تراه في الشكل الاول اسود فهو قديم من الهيكل الوثني القديم وكل ما ترى فيه خطوطاً مائلة من اليمين الى اليسار فهو من الهيكل الروماني الحديث او من الكنيسة المسيحية وكل ما خطوطه مائلة من اليسار الى اليمين عربي من عهد الوليد او ما بعده .

وقد كان في الجدار الجنوبي ثلاثة ابواب حيث الرقم ١٢ ولعلها كانت ابواب الكنيسة التي كان يدخل منها المسيحيون والمسلمون بُعيد الفتح ثم سدّت لما جعلت الكنيسة كلها جامعاً وجُعل الباب الغربي منها محراباً للجامع وبني امامه ما يسمى هيكل للجامع ثم ارتأى البناؤون ان يقيموا في وسط الهيكل قبة مستديرة ولم يكن الوسط مربعاً ليصلح لبنائها فاضافوا الى عضائده اربع عضائد أخرى وبنوا القبة عليها وهي قبة الجامع او قبة النسر حيث الرقم ١١ .

هذا ولنفصل الآن ما اجملناه معتمدين على مقالتي المستر دكي والمستر سبيرس المشار اليهما آنفاً .

الجدار الغربي من الجامع قديم كله ما عدا باب البريد في وسطه فانه من زمن العرب . وينعطف هذا الجدار شرقاً من الشمال ومن الجنوب كما ترى في الرسم وفيه بروزات عرض كل بروز منها خمس اقدام الى خمس اقدام ونصف قدم وارتفاع البروز منها نحو ٣٥ قدماً والانعطاف الشمالي قائم تماماً على الجدار الغربي فالانحراف في الجدار الشمالي لم يكن في بناء الهيكل القديم . والبناء الجديد في هذا الجدار دون ما هو في غيره .

وفي الجدار الجنوبي انواع البناء كلها ففيه جانب من البناء السوري اليوناني الذي يظن المستر سبيرس انه من زمن هركانوس قبل المسيح بنحو ٧٦ سنة . وجانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس واركاديوس من القرن الرابع والخامس وجانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن وتجديدات اخرى بعد ما احترق الجامع في القرن الحادي عشر والقرن الخامس

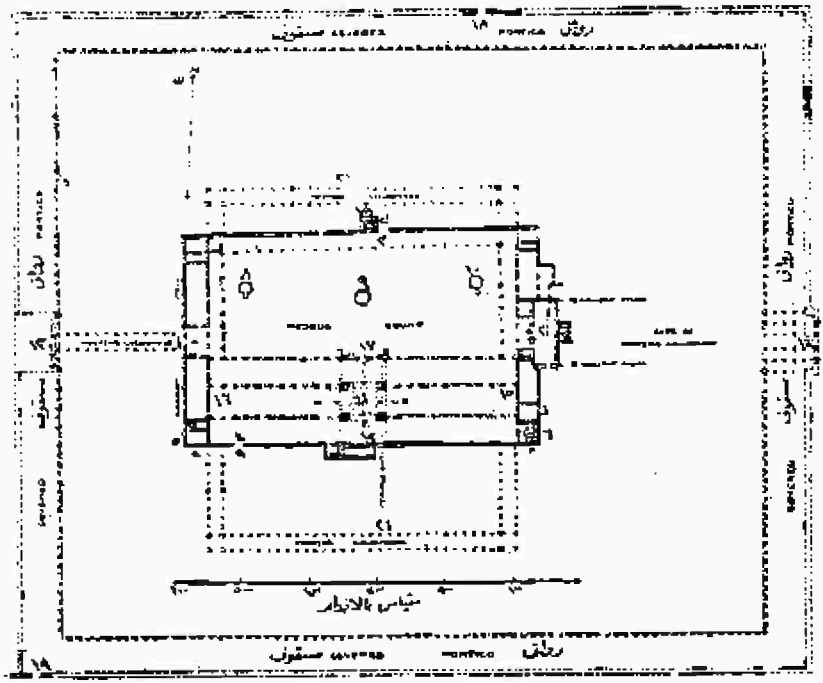

شرح الشكل الاول ودلالة ارقامه

(١) باب البريد
(٢) باب جيرون
(٣) باب الفراديس
(٤) باب الزيادة
(٥) المأذنة الغربية
(٦) مأذنة عيسى
(٧) مأذنة العروس
(٨) قبة الكتب
(٩) قبة عثمان
(١٠) قبة السعد
(١١) قبة الساعة
(١٢) المحراب حيث كان باب الكنيسة القديم
(١٣) واجهة الحرم الغربية
(١٤) باب الحرم الشرقي
(١٥) البلاط الشرقي
(١٦) البلاط الغربي
(١٧) باب المجكل
(١٨) باب الحرم الشمالي
(١٩) باب الحرم الجنوبي
(٢٠ و ٢١) رواق المجكل القديم

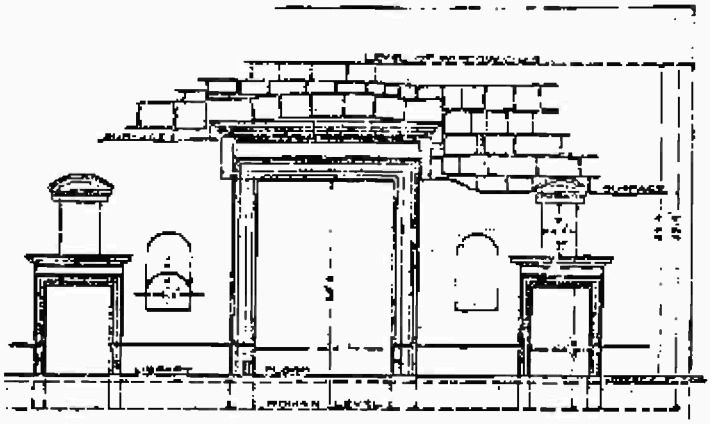

الشكل ٢ ابواب الكنيسة الاصلية حيث الرقم ١٢ في الشكل الاول

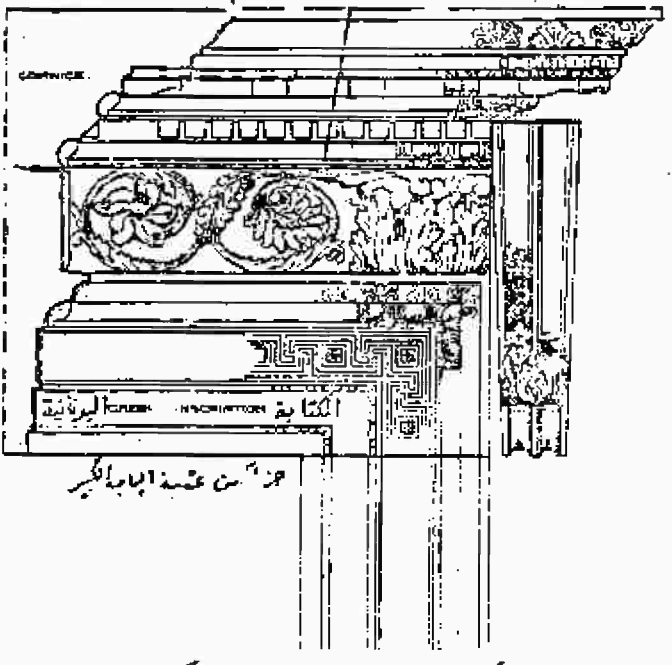

الشكل ٣ زخارف فوق عتبة الباب الكبير

الشكل ٤ باب الحرم الشرقي

الشكل ٥ الواجهة الغربية

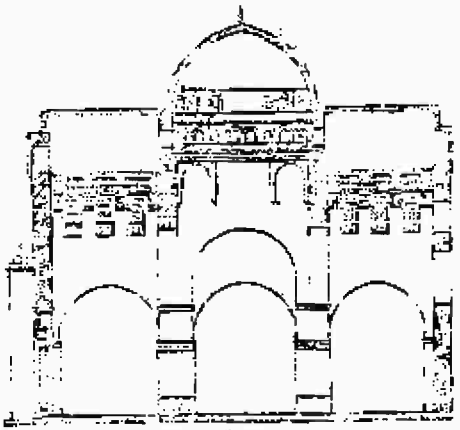

الشكل ٦

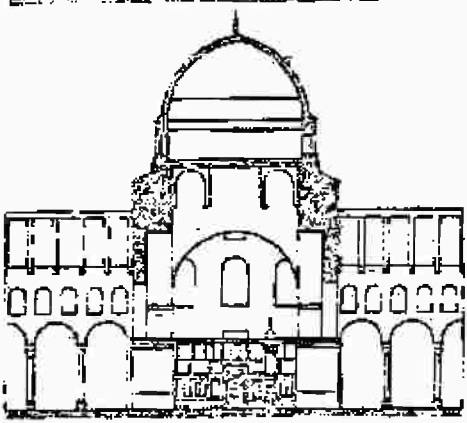

الشكل ٧

الشكل ٨

عشر . وفي وسطهِ المدخل الذي لهُ ثلاثة ابواب وهو كما ترى في الشكل الثاني فالباب الاوسط منها كبير ارتفاعهُ ٢٥ قدماً وعرضهُ ٤ اقدام وعتبتهُ حجر واحد طولهُ ١٩ قدماً وهو كثير الزخرفة كما ترى في الشكل الثالث وفوقهُ الكتابة المشهورة التي يقال فيها ملكوتك ايها المسيح ازلية وسلطانك يبقى الى كل الدهور وهي باليونانية . والبابان الجانبيان صغيران سعة كلٍّ منهما ٦ اقدام ونصف وارتفاعهُ ١٣ قدماً وفوق هذين البابين دخلات مقوَّسة توسطها مزخرفتان كما ترى في اعلى الشكل ٢ وفي المحلين بين البابين الجانبيين والباب الاوسط دخلتان كالكوى وتُرى الزخارف المشار اليها آنفاً من سقف السوق الملاصقة للجامع

والباب الجانبي الغربي من هذه الابواب الثلاثة واقع في منتصف هيكل الجامع فجعل محراباً لهُ وهذا يدل على ان وسط الجامع عربي

والباب الشرقي الذي في الحرم حيث الرقم ١٤ في الشكل الاول يشبه هذا الباب في شكلهِ وزخرفتهِ وهو المرسوم في اسفل الشكل الرابع وعلى جانبيهِ بابان صغيران وبعدهما عمودان بارزان من الجدار كما ترى في الشكل ولا يزالان ظاهرين فوق المباني المحيطة بهما والارض مطمورة هناك ١٠ اقدام فلم يبقَ من ارتفاع البابين الجانبين سوى ٣ اقدام

والظاهر انهُ كان داخل هذا الباب واجهة على ستة اعمدة كالواجهة الغربية الآتي ذكرها وان ابن جبير رآها قائمة كما يظهر مما نقلناهُ عنهُ ثم هدمت سنة ٢٢٣٣ واستعملت حجارتها في رصف الجامع وقد وجد المستر بورتر قواعد ثلاثة اعمدة منها قطر كلٍّ منها ٥ اقدام فكان طول الواجهة ٩٠ قدماً

اما الواجهة الغربية الموجودة حيث الرقم ١٣ فكان طولها ٨٣ قدماً و ٩ عقد ولم تزل قائمة داخل المباني الحديثة وقد رسمها المستر سبيرس رسماً تقريبياً كما ترى في الشكل الخامس ورسم بعض نقوشها ولم يرسم البعض الآخر فيقاس ما لم يرسمهُ على ما رسمهُ ويرى الناظر اليها انها من اجمل ما شادهُ المتقدمون والمتأخرون في كل مكان وزمان

والباب الشمالي في جدار الحرم حيث الرقم ١٨ وهو الباب الصغير المرسوم في اعلى الشكل الرابع والظاهر منهُ الآن فوق الارض عشر اقدام ونصف قدم وكان ارتفاعهُ ١٩ قدماً بالقياس على سعتهِ فالمطمور منهُ ٩ اقدام وكان بينهُ وبين الجامع سرداب كبير من الاعمدة كما يظهر من وصف ابن جبير وباب الحرم الجنوبي حيث الرقم ١٩ يشبههُ شكلاً وهو الباب الكبير المرسوم في اعلى الشكل الرابع سعتهُ ١٣ قدماً ونصف قدم وكان ارتفاعهُ ٢٥ قدماً

ولم يبقَ منها فوق الارض سوى ١٣ قدماً. والظاهر من شكل الحجارة التي حوله ان الجدار اقدم منهُ

ولقد بقيت آثار بعض الاعمدة الى الشمال من الجامع والى الجنوب ويظهر منها ومما يقولهُ السيَّاح الاقدمون وبعض الشيوخ من سكان تلك الناحية واصحاب الدكاكين انهُ كان الى الشمال والى الجنوب من الهيكل القديم رواقان او سردابان على صفين من الاعمدة كما ترى في الشكل الاول عند ٢٠ و ٢١ ولم يزل اربعة منها قائمة في الجهة الشمالية ارتفاع الموجود من كلٍّ منها ١٣ قدماً وهي داخل بيت من البيوت التي هناك

والظاهر ان القبة التي امام المحراب كانت اولاً من الحجر ثم وقعت لما احترق الجامع سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) واعيدت من الخشب وجعلت طبقتين الواحدة داخل الاخرى وهي التي رآها ابن جبير ثم احترقت لما احترق الجامع سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) واعيدت من الحجر ثم هدمت بزلزلة سنة ١١٧٣ هـ واعيد بناؤها وهي الباقية الى الآن . واذا قطعت من وسطها ونظر اليها من الغرب الى الشرق ظهرت كالشكل السادس واذا قطعت ونظر اليها من الشمال الى الجنوب ظهرت كالشكل السابع وظهر المحراب والمنبر داخلها واذا نظر الى صحن الجامع من الشرق الى الغرب ظهر كالشكل الثامن

وكان امام باب جيرون وهو الباب الشرقي حيث الرقم ٢ في الشكل الاول دهليز على ستة اعمدة كبيرة سقطت كلها سنة ١٨٥٨

والجامع الآن احسن مما كان قبلما حرق اخيراً كما يظهر من مقابلتهِ بالوصف الذي وصفهُ بهِ السر تشارلس ولسن سنة ١٨٦٥ ولكنهُ دون ما كان عليهِ في زمن ابن جبير مع انهُ كان في زمنهِ دون ما كان عليهِ في زمن المقدسي لتكلم ابن جبير عن نقوشهِ وزخارفهِ بصيغة الماضي

اما نقوش الفسيفساء التي كانت فيهِ وهي تمثل المدن والمباني والاشجار والاثمار فلم يبقَ منها الآن الا شيء قليل جداً وقد وقع لي قطعتان صغيرتان منها لم ار لهما رونقاً يقابل رونق الفسيفساء في كنائس اوربا ولاسيما كنيسة مار مرقس في البندقية

واغرب ما رأيتهُ في كتب المؤرخين الاقدمين قلة اعتنائهم بوصف حرم الجامع وما فيهِ من الاعمدة والاروقة والقناطر البديعة كأنها لم تكن موجودة مع ان بعض الاعمدة لا يزال قائماً الى الآن وقد وصفها ابن جبير فاحسن وصفها ثم جاء ابن بطوطة بعدهُ بنحو مئتي سنة ووصف بعضها فان لم يكن قد نقل الوصف عن ابن جبير فيكون اغفال الكتَّاب

لذكر تلك المشاهد من اغرب الغرائب ولا يفوقهُ غرابة الاَّ اهمال السكان وامرائهم لامرها حتى لم يبقَ منها الاَّ ما اتفق وجودهُ في جدار بيت او حانوت او حفرت فيهِ ادراج للصعود من طبقة الى اخرى . مفاخر الاراميين واليونانيين والرومانيين ومظاهر مهارتهم وعبادتهم ساعد ابناؤهم الزمان عليها

صعدت الى مكان يطل على بعض تلك الاعمدة الشاهقة ورأيت ما بقي من تيجانها وافاريزها وادراقها وازهارها وأهديت الى لحام رأيت عتبة باب قديم في جدار دكانهِ يودُّ الملك ان تكون على باب قصرهِ واختها في دكان اخر زرعت نقوشها حديثًا ليشوي الحائط ونظرت في بعض المباني التي حول المسجد وما فيها من آثار القديمة واجلت نظري في صفحات الماضي والحاضر وفكَّرت في ما عُمل باسم الدين من النفع والضر والعدل والظلم والتعمير والتدمير حروب الفلسطينيين مع الاسرائيليين . والوثنيين مع المسيحيين . والمسيحيين مع المسلمين . والعباسيين مع العلويين . وما تخلل ذلك وما تلاهُ الى مذابح الارمن الاخيرة — نظرت في ذلك كلهِ وكأني كنت اسمع انين الجرحى واري الرجال والنساء مطليين بالقار في حديقة نيرون والنار تشتعل في ابدانهم او صُبت عليهم آنية البترول في اوائل القرن العشرين واضحوا للنيران احياء . فاطرقت حياء وقلت في نفسي ليس الانسان معابدهُ من اللؤلؤ والزمرد وليجي ياليهُ فيها صانعًا قائمًا فان الاله الذي يرتضي بمثل ذلك ليتجاوز عن سيئات صانك العماء ومحتقل الموبقات اخترعهُ ابن آدم اختراعًا من اخس شيء في طبيعتهِ الوحشية . ولكن هذا الظلام الدامس لا يخلو من نور مشرق فقد ربَّت الاديان طبيعة الانسان الادبية ورقتها فكان لها اليد الطولى في ارتقاء النوع بوجه عام

هذا والجامع في قسميهِ الروماني والعربي من اجل ما بناهُ البانُّون اما قسمهُ الروماني فيكفي للدلالة على جمالهِ الباب الجنوبي المرسوم في الشكل الثاني والواجهة الغربية المرسومة في الشكل الخامس وقد قال المستر دكي وهو مهندس جمعية النقب في فلسطين ان نقوشهُ اجمل من نقوش بعلبك من حيث الوضع والاتقان الفني ولو لم تكن دقيقة مثلها نعم ان نقوش هيكل بعلبك جميلة جدًّا وبالغة حد الاتقان ولكنها لا تنطبق تمامًا على المباني العظيمة التي وضعت فيها فهي من هذا القبيل احدث من نقوش هيكل دمشق . واستنتج من ذلك ان نقوش هيكل دمشق من عهد الامبراطور طرايانس بين سنة ٩٨ و ١١٨ للميلاد

اما القسم العربي ونقوشهُ الهندسية سواء كانت في النحاس او الرخام او العاج او الصدف

او الخشب فآية في الدقة قديمها وحديثها ولعلها زادت دقة عما يقتضيه مكانها كمنقوش بعلبك الرومانية لكن يد الصناع كانت مقيدة في النائب بالبركار والمسطرة فلا مجال فيها لتمثيل الطبيعة

وهناك قسم ثالث وهو القسم البزنطي او الرومي الذي بناهُ عمال القسطنطينية الوليد ثم جُدد كلما احترق او تهدَّم وهو لا يقاس بالاول ولا بالثاني من حيث الاتقان الفني على ما نرى

ولو احتفظ المسلمون بحرم جامعهم ولم يدخلوهُ في مبانيهم لكان عندهم الآن مشهد من اعظم مشاهد الدنيا والجامع في حالته الحاضرة حريٌّ بان يحج لمشاهدته كل ناطق بالضاد

معجم الحيوان

﴿ الزُّرْزُر · الزُّرْزُور · السَّوادية · السُّودانية · السودانة ﴾

Sturnus. E. Starling. F. Étourneau

طائر اكبر من العصفور سمّي بالزرزور لزرزرتهِ اي تصويتهِ وبالسوادية للونهِ · منهُ نوع لونهُ اسود مصمت وآخر اسود منقط ببياض وهو المعروف بالزرزور في الشام والخليش او الخليج عند عرب مصر · ومن انواعهِ السرمر وسيأتي ذكرهُ · اما في مصر فانهم يطلقون لفظة الزرزور على اي طائر من العصافير بدون تمييز

ويظهر ان كتّاب العرب اطلقوا لفظة السوادية على كل انواع الزرازير وهي طائفة من الطيور تسمى Sturnidæ منها الزرزور المصمت اللون والزرزور المنقط والسرمر · قال في لسان العرب « السُّودانية والسُّودانة طائر من الطير الذي يأكل العنب والجراد وبعضهم يسميها السودانة » · وفي مفردات ابن البيطار باب العين « السودانيات وهي الزرازير » · وفي تذكرة داود « الزرزور ما نقط بالسواد والبياض من العصفور » · وفي رحلة دوطي سفي البادية « السوادية طائر يصطاد بين الصخور في البادية » · وفي حياة الحيوان « السودانية هي الزرزور » · وفي آثار البلاد (صفحة ٢٦٠ طبع غوتنغن) « السودانية وأكلة الجراد » · وغير ذلك كثير ولم نرَ ذكراً للسرمر الاَّ في محيط المحيط من كتب اللغة وغيرها ولا بد انهُ كان معروفاً عندهم

﴿ السَّرْمَر ﴾

Pastor roseus. E. Rose-coloured starling or rose-coloured pastor F. Martin roselin ou merle rose

نوع من السودانيات او الزرازير اسود الرأس والعنق والجناحين والذنب وسائرهُ احمر وهو